مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد01 2022/01/15

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المتصوفة والسلطة العثمانية بالجزائر (ق16–ق19م)

مظاهر التوظيف السياسي للفكر الكرامي(قراءة تاريخية أنتربولوجية)

Sufism and the Ottoman Authority in Algeria(16 th-19th century)
The mystical paranormal and its impact on political life
"Anthropological and historical reading"

د. سعيد شريدي*

جامعة 20أوت 1955– سكيكدة،

saidcheridi1@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/10/23 تاريخ القبول: 2020/12/21

ملخص:

تسعى هذ الورقة البحثية لإبراز العلاقة بين الحكام ورجال الدين المتصوفة في إيالة جزائر غرب طوال الفترة العثمانية، من خلال رصد بعض الأخبار المناقبية التي وردت في مصادر الوقت أو كررتها المرويات الشفوية، والتي تكشف عن ظاهرة استغلال المتصوفة للبركة والكرامة، لأجل حيازة نفوذ روحي يؤهلها لمواجهة ظلم أعوان السلطة، والتخفيف من وطأة مطالبهم على العامة، خصوصا في أوقات الشدة وفي الأزمات الحادة. وفي الجهة المقابلة، سعى أعوان الدولة لاستغلال التصوف الشعبي في بسط سلطان الدولة، واكتساب ولاء فضاءات واسعة لم تستطع إخضاعها وترويضها، أو لتجنب كلفة فرض هيمنتها عليها، أمام نقص إمكانات التجنيد؛ إذ لجأت لتوقير رموزها الدينية والاجتماعية، فخصت الأولياء الصالحين بالتبجيل، لمكانتهم في قلوب العامة، وإيمان الناس بقدراتهم الخارقة المستمدة من ورعهم وبركتهم. وغالبا ما كان الدافع إلى ذلك هو اعتقاد أعوان السلطة أنفسهم في بركة الشيخ الولي، وخشيتهم من كراماته، وحلول غضبه عليهم في دنياهم وفي آخرتهم.

الكلمات الدالة: الفكر الكرامي، المتصوفة، السلطة، الأولياء الصالحين، الجزائر العثمانية.

Abstract:

This article examines the problem of the influence of the Sufis mysteries on political life by examining the factors spreading the faith in the paranormal

* **المؤلف المرسل:** شريدي سعيد، **الايميل:** saidcheridi1@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

Sufis in the popular circles, and among the Turkish agents of Ottoman Authority in Algiers. And we review the most prominent manifestations of the mystical paranormal, such as belief in the ability of the mystic to shed lightning and disasters, ills, diseases and death, and the dependence of the authority on the clergy and their superiors to establish security and impose state authority, and their interest in their shrines.
Keywords: Algeria; Ottoman Authority; popular mysticism; paranormal; political life.

مقدمة:

أولت عديد الدراسات التاريخية والانتربولوجية الاهتمام لظاهرة التصوف في الجزائر وعموم بلاد المغرب، وحظيت كرامات الصوفية بعناية خاصة من قبل الدارسين، مؤرخين وأنتربولوجيين. غير أنه لم نجد من الأبحاث ما يهتم بمسألة توظيف الفكر الكرامي سياسيا، من قبل السلطة أو خصومها، رغم وضوح الظاهرة خلال الحكم العثماني للمغارب، والجزائر خصوصا.

ترى: ماهي عوامل انتشار الإيمان بالكرامة في الأوساط الشعبية، وبين أعوان الدولة الأتراك في الجزائر؟. وماهي أبرز مظاهر الاعتقاد الكرامي في الجزائر خلال فترة الحكم العثماني؟ وكيف تم توظيف الكراماتمن قبل أعيان السلطة وأعوانهافي استتباب الأمن وفرض سلطان الدولة؟ وكيف استغلها شيوخ الصوفية لمواجهة تعنت السلطة وجورها؟

سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات بغية تشريح ظاهرة التوظيف السياسي للفكر الكرامي وأبعادها التاريخية والأنتربولوجية، خلال فترة تاريخية تعد من أبرز الفترات التي شهدت تشكل البنى الثقافية والاجتماعية والسياسية للجزائر الحالية.

أولا: دوافع استغلال الفكر الكرامي

إن شدة ارتباط العثمانيين –منذ هجراتهم الأولى من أواسط آسيا– بالدين وأهله، واستجابتهم لداعيه، وفهمهم السطحي البسيط له، قد دفعهم إلى البحث عن قرائنه الملموسة التي يرونها رأي العين، وهو ما وجدوه في ادعاءات الدراويش والمرابطين وشيوخ الصوفية، الذي بثوا في أتباعهم مبادئ التصوف العملي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الشعبي، التي تعد الكرامات، مع الذكر والشطحات، أهمها على الإطلاق. وحيث يعتقد باتحاد الشيخ الولي مع الخالق البارئ، فتفيض عليه البركة الإلهية، ثم تنتقل إلى ذريته بالوراثة. وقد استغلت هذه الظاهرة سياسيا من قبل أعوان السلطة العثمانية بقصد الاستيلاء على قلوب الرعية، فكرس الأتراك أينما حلوا هذا الاعتقاد الشعبي، وهو ما يؤكده حمدان بن عثمان خوجة في كتابه "المرآة": "...لأن الاعتقاد الشعبي إزاء المرابطين أساسه الجهل والمبادئ الغالطة والتعصب وليس من السهل إصلاحها، غير أن المتعلمين منا ورؤساء الحكومة التركية يدركونها حق الإدراك، والسياسة هي التي جعلت الآخرين يبقون على هذه المبادئ الغالطة أو يتركونها تستمر ويحترمون الأماكن التي تقدسها القبائل"(حمدان خوجة، المرآة، 2005، ص20).

إن تحالف السلطة، ممثلة في باشواتها وباياتها وكبار موظفيها، مع المتصوفة وشيوخ الزوايا قد حقق لبعض الدجالين المدعين منهم المكانة العليا، لتجرئهم على إظهار الكرامة بالدسائس والحيل. وأصبحت الكرامات رأسمالا رمزيا، ثقافيا واجتماعيا. وتعددت أنواع الكرامات، ككرامة تخليص الناس من جور الحكام وظلمهم، وكرامة الطعام أيام القحط والنوائب، وكرامات الشفاء من الأمراض المستعصية، وكرامات العقاب الدنيوي للمذنبين والمتعنتين في ذنوبهم. وكرامة تفريج كروب من يلوذون بهم(مداني جرجيرة، 2012، ص109).وفي الحقيقة فإنه يمكن الاستناد إلى رؤية الباحث المغربي إبراهيم القادري بودشيش الذي فسر ظاهرة الفكر الكرامي في المغرب على أنها من إفرازات المراحل الظلامية، وفترات التأزم السياسي والاجتماعي والاقتصادي؛ حيث يؤدي استفحال الأزمات إلى ظهور الكرامات وترديد أخبارها(القادري بودشيش، 2014، ص187).

وبخصوص الفترة العثمانية في الجزائر فإن انفراط العقد الشرعي بين السلطة والرعية منذ الضعف الذي أصاب السلط السابقة، وتغول المتلصصة، واستفحال الزطاطة وسطوة القبائل العادية، وتمدد الأطماع والغزوات الخارجية الإيبيرية، كلها أزمات كانت سببا كافيا لصعود الفكر الكرامي والإيمان به، كأحد أهم سبل المقاومة الشعبية (الجماهيرية).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ففي غياب القدرة على المواجهة والمقاومة العسكرية المؤطرة رسميا لجأت الجماهير المضطهدة والضعيفة إلى الكرامات، باعتبارها رأسمالا رمزيا، للتعبير عن رفضها لما آلت إليه أوضاعها الداخلية وموقعها تجاه المتربص الخارجي، وللتعبير عن آمالها في واقع جديد يسوده الحق الإلهي، والمعجزة الربانية التي تنتصر حتما لأصحاب الحق، وتنتقم من الظلمة الأقوياء. وهو الأمر نفسه الذي استغله مؤسسو الدولة العثمانية في أناضوليا، في خضم انتشار "مناخات القلق وغياب الطُّمأنينة" من جراء زحف المغول. أين أفاد العثمانيون كثيرا من ازدهار أنماط التدين الصوفي بتجلياته المختلفة، في مناطق غابت عنها أشكال الدولة ومظاهر الاستقرار. فوظفوا التكايا وشيوخها كقوة روحية في طريق تشكيل حاضنة كبرى، توفر الأمن لقبائل الأوغوز التركمانية، التي عانت طويلا من ويلات الزحف المغولي والجور السلجوقي والعسف الرومي البيزنطي(ممدوح بري، 2019، ص33).

وجد المؤسسون العثمانويون(الإخورةبربروس وقادة الزمر التركية في المغارب) وضعا متأزما، ترجمته دعوات النجدة من قبل الساكنة في جنوب المتوسط. ومن منطلق تكوينهم السياسي في الأناضول، وتشبعهم بالفكر الصوفي فقد أبدوا إذعانا تاما للتراث الكرامي لسيدي محرز ثم أبي الغوث القشاش في تونس، وعبد الرحمان الثعالبي ثم سيدي أحمد بن يوسف في الجزائر. وأظهر أعيان الحكم العثماني استجابة فردية وجماعية للخطاب الصوفي في عموم البلاد، طوال القرنين الأولين على الأقل، في إطار السعي للحفاظ على حلف سياسي يتيح لهم الهيمنة على المكون المحلي، ما يغنيهم عن تجييش الجيوش وتحصين الحصون.

وقد ترجمت عديد الوقائع التي حفظتها الذاكرة الشعبية ودونتها التراجم والمصادر المناقبية، والتي كان لأعيان السلطة وأعوانها طرفا فيها–ترجمت– أهمية الفكر الكرامي في ترتيب علائق السلطة بالمجتمع، خصوصا في المجال الريفي، الذي شهد اتّحاد القبيلة والطريقة، ولم يخضع للسلطة إلا عبرهما. وكان للشيخ الولي/الصوفي الكعب العالي بفضل بركته وكراماته. فخلال الفترة العثمانية ظل أعوان الدولة وحتى كبار موظفيها ووجهائها، بمن فيهم المفتين والقضاة، وكذلك شيوخ القبائل وفرسانها، طوع بركة الشيخ الولي، مثلهم مثل العوام.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ثانيا: مظاهر التوظيف السياسي للفكر الكرامي في الجزائر العثمانية.

1- شفاعة الولي في وجه ممارسات أعيان السلطة العقابية:

لقد استغل عموم رجال الدين وأهل العلم نفوذهم الأخلاقي ومكانتهم الروحية للعب دور الوسيط بين رجال الدولة والعامة، أو بين صغار الموظفين ورؤسائهم المغضوب عليهم. وكثيرا ما حال شيوخ الصوفية دون أن ينال بعض الأفراد أو الجماعات العقاب من السلطة، ما لم يكن جرمهم يمس بحقوق الأفراد، أو يكون مساسا بالعقيدة أو الشرف الاجتماعي؛ حيث يشفع الشيخ فيهم مقابل توبتهم عن جرمهم الذي استوجب عليه عقابهم.

وقد أورد محمد بن سليمان الجزولي الفقيه في مؤلفه "كعبة الطائفين" سردا لظلم قياد المحِلة الأتراك العثمانيين لأهل البلاد، فأورد الخبر عما ارتكبه القايد محمد بن سوري (توفي سنة 1629م) من تجاوزات في حق حضر تلمسان وناس ريفها. فعندما توجه هذا الأخير على رأس محِلة لإخماد ثورة أحمد السوسي المغربي، الذي أدعى المهدوية بجهة الغرب، وشايعه بعض أهالي تلمسان وقبائلها، أعمل القايد المذكور الظلم فيهم، حتى اضطر الولي الصالح ابن علي العبدلي إلى التدخل، وإيقاف جور القايد وظلمه، "فكان يطعم ويسقي الفارين إليه ويشفع فيهم، فيقضي الله الحوائج على يديه"(الجزولي، مخطوط، ورقة 102).

وفي ثورة الدرقاوي ببايلك الغرب، حين اشتد القتل بين جند الترك المدعومين بفرسان المخزن من جهة، وأنصار الدرقاوي من عرب الصحراء بأطراف وهران، كان الفارون من كرّة المخزن يلجأون إلى ضريح الولي الصالح سيدي محمد بن عودة، لأن الباي محمد المقلش"كان نبه عليه، وأوصى بحرمته"(مسلم الوهراني، 1974، ص85).

وحسب ابن هطال التلمساني، الذي رافق حملة بأي الغرب محمد(الكبير) بن عثمان على الجنوب الوهراني، فإن الباي المذكور قد عفا عن أعراب جبل راشد، رغم تمكنه منهم بعد عصيانهم وتمنعهم. وقد رق حاله لهم "حين رأى شيخا كبير السن من ذرية بعض الصالحين لا يقدر على المشي" فأمر خدامه " أن يحملوه، وكساه وأعطاه دراهم ... وفرسا، ورده لأهله مكرما". وكان لهذا الشيخ المدعو الموهوب أن شفع في ساكنة المنطقة جميعهم، فحال دون أن يصادر الباي أملاكهم، وخفف عنهم مقابل الصلح(ابن

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

هطال، 1969، ص48). وكثيرا ما يصادف القياد والبايات في أثناء سير حملاتهم العسكرية شيوخا يعتقد في كراماتهم ومناقبهم، فيشفعون في قبائلهم، ويردون عقاب السلطة عنها. وهو أسلوب بقدر ما يعكس نفوذ الصوفية، فهو يدل على دهاء وحنكة بعض أعيان السلطة، الذين يستغلونهم لكسب ولاء فضاءات بعينها وتحييدها، مقابل إعفاءات استثنائية من المطالب المخزنية.

2- كرامة تسليط العلل والأمراض والموت:

مثلما مثلت كرامات شفاء العليل وسيلة لطمأنة الناس، وتعويضهم عن نقص الحلول العلاجية الكفيلة بتجاوز الأزمات والوعكات الصحية، فإن التأديب والتعزير كان من أبرز كرامات الأولياء لإثبات مكانتهم الروحية، لأجل دفع العامة ومريديهم خاصة إلى الإقلاع عن الذنب والتوبة، والإذعان لقدرتهم. وهو طرح كرامي يدخل في باب الدعاء على الظالم لأجل نصرة المظلوم.

ولما كان الظلم في العادة يحيق العامة من أيدي الحكام وعمالهم في الأوطان والجهات، فإنه كثيرا ما يُسلَّط هذا النوع من الكرامة على أعوان السلطة العثمانية في الجزائر، من القياد والبايات وقادة العسكر؛ إذ تتحدث أخبار المناقب عن عديد الحالات التي عانى فيها بعض رجالات السلطة وأعوانها من الأمراض العارضة أو المزمنة أو الخطيرة المميتة، تلحقهم من جراء غضبة الأولياء والدراويش، ودعائهم عليهم لظلمهم الناس. ويكون الجزاء بحسب درجة الذنب، أو التوبة عنه. وتمثل هذه الظاهرة صورة من صور "الانتصار للمظلوم دون مواجهة مع الظالم/السلطة، فإذا رفع الظلم رفع الضر عن الظالم"(أحمد موساوي، 2007، ص43). وعادة ما يسبق النصح ذلك، فإن سمع الظالم واستنصح نجا، وإن استكبر وطغى لحقه ما يستحق.

وتبرر المورويات المناقبية مقتل المؤسس عروج بن يعقوب بدعاء ولي تلمسان إبن ملوكة؛ حيث ذكر أبي راس الناصر المعسكري في "عجائب الأسفار" أن عروج "...لما دخل تلمسان وعاث بها وثاروا به(كذا) أهل البلد وأخرجوه منها وخافوا من عودته، ففزعوا إلى ولي الله ابن ملوكة فدعا عليه فهلك بجبل ورنيد"(أبي راس الناصر، عجائب، 2005، ص163).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

كما يسجل أبو راس الناصر المعسكري أيضا، خبرا عن تسليط الأمراض، إذ يذكر أن "... قايد ام عسكر أتى بجماعة من المشارف، محزومين من أوساطهم بحبل، فذهب أحد الشيوخ المشرفيين للباي خليل فلم يسرحهم له. وبمجرد ما خرج من عنده أصابه وجع كاد يموت منه، فأمر برده فرجع، وسرح المشارف، وتضرع له فعافاه الله من مرضه"(أبي راس الناصر، فتح الإله، 1990، ص54). وتدلنا رواية صاحب "فتح الإله" هنا عن مقصد التعزير والتأديب، مثلما تدلنا على إيمان البايات وكبار الموظفين بالمكانة الروحية للصوفية وإذعانهم لكراماتهم.

تتكرر في الموروث الشعبي للغرب الجزائري كرامة الشيخ الولي سيدي محمد الهواري ضد باي الغرب مصطفى بوشلاغم بعد فتح وهران الأول(في النصف الأول من القرن 18م)؛ حيث أمر الباي أحد جنوده بإلقاء القبض على شخص لجأ فارا لقبة الولي المذكور، فانتفخت بطن الجندي، كما حل سخط الولي بالأتراك العثمانيين فلم يقدروا على الاحتفاظ بوهران، التي عاد إليها (الكفرة) الإسبان من جديد، حيث كان الأهالي يعتقدون أن دعوة الإمام هي التي جعلت اليهودي يخون، ويفتح باب المدينة للإسبان الذين استعادوها، وبقيت في أيديهم أزيد من قرن ونصف، حتى فتحت مرة أخرى في سنة 1791م(سيدهم، 2009، ص20).

ويروي الشيخ بن المبارك بلعطار الخبر عن كرامة الولي الصالح الشيخ الشيحي، في مواجهة تعسف وغلظة الباي آجشي حسن بوحنك، فبمجرد ما أغلظ الباي مع الشيخ في الكلام، أحس الباي بأهوال عظيمة تحيط به، ورأى نفسه جالسا على هواء عظيم، والنار تشتعل تحته(مرض نفسي)، فاستغاث بالشيخ وحسنت نيته واعتقد في كرامة الأولياء في حينه، وأعطى للشيخ دارا وجعل له زاوية بأولاد عبد النور غرب البايليك، وأسقط المطالب المخزنية عنها، لأجل رضى الشيخ عنه(مبارك بلعطار، 2012، ص127).

يعج التراث الصوفي الشعبي في الجزائر الحديثة بأخبار كرامات تسليط العلل والأمراض، تأديبا من أصحابها للعامة والخاصة من أعوان السلطة وأعيانها، وتعزيرا لهم، حتى تحفظ المكانة السياسية والاجتماعية لأولي الولاية ومدعيها، وحتى لا يتجرأ الناس عليهم.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

3– كرامة الصواعق وانشقاق الأرض:

رغم أن الغالب في مميزات الخطاب الكرامي نزوعه للسلم في محاورة الواقع، وتجنب المواجهة(أحمد موساوي، 2007،ص41)، إلا أنه يضطر إلى ذلك اضطرارا أمام تعنت أعوان السلطة في بعض الأحيان، ومن أجل أن لا يفقد الأولياء سلطتهم الروحية، وثقة المريدين والعامة في قدرتهم على حمايتهم؛ إذ يلجأ الخطاب الكرامي إلى المبالغة في تصوير العقاب الذي حل ببعض أعيان السلطة، الذين يفضلون مواجهة كرامة الولي، ولا يظهرون شيئا من التوبة والإذعان. وقد تصل غضبات بعض الأولياء إلى حد انشقاق الأرض، وردم أجناد السلطة، تمثلا بقصة النبي موسى مع جند فرعون.

فمن القصص التي كررتها المرويات المناقبية، واحتلت مكانة مهمة ضمن السرد الشعبي الذي يمجد شخوص الجينيالوجيا المحلية وأصحاب الولاية، ويبالغ في تعظيم كراماتهم، نذكر قصة الولي الصالح سيدي بوزيد تلميذ الولي سيدي بولعويدات في منطقة تاقنسة(أنظر التعليق رقم1)، الذي رفض إعطاء الجيش المؤونة التي توجبها تقاليد سير المحلة وعاداتها القديمة، وعندما أرادوا أخذها بالقوة انشقت الأرض وابتلعت ما فوقها فرُدم الجيش تحت جسور تاقنسة. وتدَّعي الأسطورة أن المكان المزعوم توجد تحته أسلحة ورمم جثامين الجند. وتتحدث تفاصيل الأسطورة عن خوارق سيدي بوزيد، منها: تحول مسجد بناه إلى شكل كعبة، وأنه أخذ هيئة أسد بعد عودته للحياة (عبد الرحمان بوزيدة، 2005، ص92).

لقد تردد ذكر الولي الصالح سيدي موسى بن ناصر في المرويات الشفوية المنتشرة بالأطلس البليدي، وخلدت ذكره وكراماته عديد الحكايا والأشعار الشعبية، وأبرزها ما يمجد كراماته في سحق عسكر العثمانيين، إذ لم تستطع "سبع محال"هزيمته، وواجهها وحيدا. وقد تغنى بمناقبه تلك شاعر الملحون محمد ابن مسائب، أحد أعلام تلمسان في القرن الثامن عشر، في قصيدة طويلة جاء في مطلعها:"نبدا بسم الرحمان.... سبحان الحي القادر..."حتى يقول: "طلعت له سبع محال..... وأكثر من هذا ياسر..".وقد ذكر الشاعر مناقب الولي وكراماته في إشفاء العليل، و"إجلاء المحن عليه". والأهم من ذلك أن الشاعر يشير إلى أن هذا الولي قد أطاعه عسكر الترك وأذعنوا لكراماته(ابن مسائب، 1989، ص74).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وفي الجنوب القسنطيني تكرر المرويات الشعبية قصة الولي سيدي عبيد الذي تنتسب إليه قبيلة مهمة في الإقليم، حيث رفض هذا الولي الصوفي الإذعان لسلطة العثمانيين وجورهم في المغرم، فتذكر الرواية أسطورة انشقاق الأرض أمام محلة باي قسنطينة، كي تحول بينه وبين مريدي الشيخ الذين اجتمعوا حوله دفاعا عنه. وللإشارة فإن سيدي عبيد هو أحد أتباع الزاوية القفصية بتونس، أسست حول ضريحه بمنطقة سطح قنتيس شرق جبل الأوراس زاوية، لا تزال مزارا مشتركا في المنطقة الحدودية مابين مرتفعات الأوراس الجزائرية والسباسب العليا التونسية(صالح علواني، 2013، ص ص111-124).

ولدينا مثال آخر من يايليك الغرب يمجد مناقب محمد بن علي الشريف الدرقاوي في مواجهة الباي الحاج خليل؛ حيث تتحدث المصادر المناقبية عن عواصف هوجاء هبت على مخيم الباي المذكور وجنده على أسوار تلمسان، التي احتضنت الثائر الدرقاوي. وأن الصاعقة استهدفت خيمة الباي نفسه، ولم يستطع رفقاؤه نجدته حتى لقي حتفه. وهي الواقعة التي زادت من التفاف عامة تلمسان حول الشيخ الدرقاوي(عبد الحكيم مرتاض، 2015، ص289).

وقد يلجأ مدعي الولاية إلى استغلال سذاجة العامة وتشبُّعهم بالاعتقاد في خوارق المتصوفة، فيجمعون حولهم الأتباع، ويحمِّسونهم بادعاء القدرة على سحق أجناد الدولة لمجرد الدعاء. وقد استطاع ابن الأحرش الدرقاوي أن يغر ساكنة جبال شمال قسنطينة بادعائه الكرامة وإتيان الخوارق، و"أن دعوته مستجابة، والنصر يتبعه حيثما توجه، وبارود عدوه لا يضره، ولا يصيب أتباعه بل يرجع لديهم ماء". فبايعوه وآزروه، وسار بهم إلى قسنطينة يريد دخولها، ولم يغتر به ساكنة المدينة فقاوموه حتى انهزم وفر إلى الجبال، وقد استمرت دعوته هناك، وانتصر على الباي عثمان وقتله(صالح العنتري، 1974، ص30).

تعد مثل هذه الوقائع المناقبية تعبيرا عن الاختلاف والفرقة التامة بين أصحابها وبين ضحاياها من رجال السلطة. وهي تندرج ضمن مساعي المرويات المناقبية لمزيد من الترويج لقدرات الشيخ/الولي الخارقة، في مواجهة إصرار السلطة على إلحاق العقاب به.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

4- كرامات أضرحة الصالحين:

إن ما احتله الصوفية من مكانة في نفوس العامة في حياتهم يزداد ويتضاعف بعد موتهم؛ حيث تتخذ لهم الأضرحة والمزارات يتقرب إليها المريدون والأتباع، ومن خلالها يسهل على السلطة الهيمنة عليهم عبر إضفاء القداسة، وتقديم عرابين التوقير والاحترام لهذا الرمز المقدس. فكثيرا ما نجد موظفين كبار، ومنهم الباشوات والبايات، ينفقون من أموال الخزينة ومن مالهم الخاص على بناء الأضرحة وترميمها، وكذلك يفعل حكام المقاطعات الإدارية. مثلما فعل القايد حسن بن عمر الوزناجي بن عبد الله في زاوية المعامرة بأولاد عبد النور، في البايليك الشرقي؛ حيث ابتنى ضريح الولي الصالح سيدي الأسعد بن الوالي محمد يحي الصالح، المتوفي سنة 1680م، كما يشير فيرو اعتمادا على نقيشة في الضريح , Feraud). 1870,p21)

وحسب دراسة أعدها الباحث ياسين بودريعة، بالاعتماد على وثائق سجلات الأوقاف في مدينة الجزائر، فإنه أحصى عشرات حالات وقف لعبيد وإماء وبساتين وحوانيت على أضرحة وقباب الصالحين في المدينة من قبل أعيان السلطة ووجهائها، كما ساهم بعضهم بالمال في ترميم الأضرحة والمزارات (ياسين بودريعة، 2013، ص367).

وتكشف أخبار المناقب عن تقرب أعوان السلطة إلى الأولياء طمعا في كرامتهم أن ينالوا من خلالها الوظيف والترقية. فبن يوسف الزياني يذكر خبر وقوف عسكري من جند الأتراك عند باب ضريح الولي سيدي عبد الله بن منصور الحوتي، ونذر له أن يبني عليه قبة عجيبة تجعل له احتراما كبيرا إن ارتقى إلى ما يطلبه من المنصب، وقد أكد الزياني أن العسكري المذكور قد ارتقى إلى ما يبتغي، وكان عند نذره؛ إذ ابتنى على ضريح الولي سيدي بن منصور قبة، كما ابتنى على حفيده بوعبد الله قبة أخرى(بن يوسف الزياني، 2013، ص82).

وحالات بناء أضرحة الصالحين من قبل الحكام وأعيان السلطة في الجزائر العثمانية كثيرة ومتنوعة، لا مجال لحصرها؛ بل نجد في أحايين كثيرة موظفين أتراك يديرون بلدات وحواضر يلجأون لنقل جثامين بعض الأولياء إليها، مع إظهار التقديس والتبجيل قصد استمالة أتباعهم ومريديهم أو مراقبتهم عن كثب، ولهذا

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

نجد حالات أساطير الأولياء ذوي القبور المتعددة، مثل حالة الولي سيدي أحمد بلحامة، أو سيدي محمد بوقبرين، وسيدي عبد الرحمان بن شامة بشنوة وشرشال(الحسني دحومان، 2009، ص49).

وعادة ما تكون ظاهرة بناء الأضرحة من قبل السلطة سببا كافيا لتأسيس زوايا يرتادها المريدون وطلاب العلم. وسرعان ما تستمد مكانتها لدى السلط المركزية الحاكمة من النظرة القدسية التي تحظى بها، والتي تمنحها ميزة تجعلها ملاذ حماية وأمان للمعتصمين بها. وهو ما ينطبق حتى على قطاع الطرق الذين يتجنبون المساس بمن يحتمون بها. فمن دلائل هيبتها وعلو مكانتها أنه كان ينبغي للمرء (وقتها) "أن يتخذ زاوية حتى يكون محفوظا لا يقدر أحد أن يتعدى عليه وعلى حرمه"، على حد وصف ابن مريم التلمساني(ابن مريم، 1989، ص235). ونستشف من كلام ابن مريم فيما سبق أن أمن الزوايا إنما مرده إيمان الناس في كرامة شيوخها والقائمين عليها، وهي الأسباب التي تجعل من محيطها مأمنا يقصده العابرون، ويستقر به من لا نصير لهم أو عصبة تذود عنهم ويلوذون بها.كما أن اعتراف الولاة والعامة بحصانة حمى الضريح ثابت ومتفق عليه، ويرجع ذلك لاعتقادهم "بقدرة الأولياء على تسليط غضبهم على كل من يهين حماهم"(ياسين بودريعة، 2013، ص381).

ولدينا وقائع متعددة يستدل بها الخطاب الكرامي على قدرة الأضرحة على النيل ممن يتجاوز قدسيتها ويهين حرمتها. إحداها تتحدث عن كرامة قبة سيدي يعقوب بالقرب من حصن الإمبراطور، الذي لجأ إليه الباشا محمد تكليرلي(تكا أوغلي) في شتاء 1556م، فارا أمام قايد تلمسان العلج يوسف كلابري، الذي استغل فرصة خروج الباشا إلى حمام ريغة بالقرب من مليانة، هروبا من عدوى وباء الطاعون، وسعى في الثأر لعتيقه حسن قورصو. ولأن الانكشارية حالوا دون دخوله، بعد أن أوصدت الأبواب في وجهه، فقد لجأ إلى قبة سيدي يعقوب طلبا للشفاعة، إلا أن القايد يوسف لحق به وقتله هناك دون أدنى مراعاة لحرمة الضريح (Devoulx, 1887 , p 82).وهنا يتدخل الفكر الكرامي لتبرير مصير القايد يوسف الذي تولى خلافة ضحيته البايلرباي المقتول لمدة ثلاثة أيام، قبل أن يُقضى عليه هو الآخر من جراء الوباء، ولم تشفع له محاولاته التكفير عن ذنب انتهاك حرمة ضريح ولي من أولياء الله، رغم توزيعه الصدقات على عامة المدينة بسخاء(Watbled, 1871 , p 338).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أما الواقعة الكرامية الثانية، فترجع إلى غضون القرن 18م؛ إذ تكشف إحدى قصص كرامات مرابط ميلة سيدي بويحي، الشهير باسم بوميات(مئة) ناقة، عن ما للأضرحة ومزارات الصوفية من مكانة في أنفس موظفي السلطة التركية بالجزائر، ومدى إيمانهم بكراماتهم؛ إذ تروي القصة خبر معاقبة شاكر باي قسنطينة لبعض قبائل غرب البايليك، فكلف قايد عزيب الجمال المسمى درنالي، بمصادرة العديد من قطعان الإبل، وساقها نحو قسنطينة، وعندما وصلت القافلة إلى ضواحي ميلة(انظر التعليق رقم2)' أمر القايد درنالي الرعاة بالتوقف للاستراحة تحت الأشجار المحيطة بالمدينة، وهناك تُركت الجمال لحالها. وبينما نام الرعاة وقعت في الحِمى المحيط، فعاثت فسادا في غروسه، وفجأة سُمع دوي انفجار مرعب، فارتطمت الجمال المفجوعة بعضها ببعض، وسقطت منها مائة ناقة ميتة، من جراء غضب الولي الصالح لعدم احترام ضريحه. وبدأت مشكلة قايد العزيب مع سيده الباي؛ إذ خشي أن يلحقه منه العقاب، فتوسل إلى طلبة زاوية سيدي بويحي التدخل لصالحه شافعين لدى الباي، مقابل تقديمه بغلة مسروجة للضريح، إلا أنه حنث وعده فلحقته "**دعوة شر**" وأصبح أعمى ومات بعدها بائسا فقيرا(فيرو، 2010، ص56).

ولأجل تلك القداسة أضحت محيط الزوايا وأضرحة الصالحين في أرياف المغارب مركزا لاستقرار الكثير من العوائل والجماعات، حتى شكلت مع مرور الزمن مجموعات بشرية تنتسب لشيخ الزاوية، وتهيمن على مجال ترابي تنافس عليه المجموعات الأصلية أو جماعات أخرى، وسرعان ما تتفق مع جيرانها على حدود تكاد تكون قارة(الحباشي، 2012، ص76). وقد استغل الموظفون الأتراك مكانة هذه الزوايا القدسية من أجل الانفتاح السياسي على كثير من مريديها، وعلى المجال الاجتماعي والترابي الذي تهيمن عليه.

وكثيرا ما كان اهتمام أعيان السلطة وأعوانها بأضرحة الصالحين ومزاراتهم ينبع من اعتقادهم الراسخ في بركتهم وكراماتهم، فقد دأب قواد الجيش وأجناده على التماس البركة والنصر، ودرء البلاء وجلب العناية الربانية، من خلال التمسح بأضرحة الأولياء قبل خروجهم للغزو. وكثيرا ما كانوا ينذرون النذر مقابل ذلك، ويلتزمون به. فقد تحدث الأسير دو روكفيلDe Roquevilleفي ملاحظاته بمدينة الجزائر عن زيارة البحارة ورياسهم حال عودتهم من غزواتهم، فيقدمون الهدايا إلى الأضرحة، من مال ومتاع وعبيد، ويولمون عندها، بإشعال الشموع وإطعام الطعام (De Roqueville, 1675, p27). وتكشف

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

هذه المعلومة التي ساقها دو روكفيل عن مكانة قدسية مهمة جدا تتمتع بها أضرحة الصالحين لدى المحليين، ولدى عناصر الأوجاق من الأتراك والأعلاج.

5- استعانة السلطة بأصحاب الكرامات في فرض الأمن:

نظرا للمكانة التي كانت للشيوخ والمرابطين المتصوفين فقد كان موظفو الجهاز الأمني والإداري يستعينون بهم لفض النزاعات، ومعالجة آثار بعض الجرائم كالسرقات، أو لحماية بعض الأوطان ومعابر القوافل والأسواق من تجرؤ اللصوص وقطاع الطرق. فعلى سبيل المثال: استعان قايد بني جعاد، أحمد بن شعبان، بمرابط القليعة سيدي الحاج محي الدين بن سيدي علي بن مبارك لاسترجاع قطعان ماشية مسروقة لأصحابها. كما أن كلمة واحدة من هذا المرابط تكفي لضمان أمن المسافرين وتجار القوافل في كافة الجهات والأوطان في الإيالة(نصر الدين سعيدوني، 2013، ص369).

كما كانت قوافل التجار والمسافرين على طريق قسنطينة إلى دار السلطان يلجأون إلى بعض شيوخ الصوفية في زوايا المناطق المحادية، فيرسلون معهم من يرافقهم حتى لا يتجرأ عليهم اللصوص، فحسب الفكون فإن شيخا صاحب بركة يدعى سيدي محمد الموهوب كان هو وبنوه "يترددون مع القوافل والسفار المجتازين ببلادهم لكي يأمنوا من مكر أهل ذلك الوطن(متلصصته)" وما يعكس شدة خشية اللصوص من الشيخ المذكور، وقوة نفوده، أنه كانت له "... بغلة معروفة وكتابا معروفا وشملة معروفة، فيلجأ الناس إلى واحد منها...إذا غاب من يرافقهم من أبنائه، فيقوم ذلك مقام أحدهم لراكبه أو حامله ...."(عبد الكريم الفكون، 1987، ص131)

وحول النفوذ الروحي لأصحاب الكرامات الصوفية على المتلصصة في المجال المذكور(الطريق إلى قسنطينة) يخبرنا علي أفندي الذي رافق والده حمدان خوجة إلى قسنطينة في أوائل فترة الاحتلال الفرنسي، عن مدى تأثير المرابط بن عيسى في أطراف جرجرة على العامة بما فيهم اللصوص والزطاطين (Saulcy, 1838, p19).

وقد يستغل بعض أدعياء الولاية سداجة العوام، فيتجاوزون ما يجب أن يكون عليه الشيخ، فيتخذون من لصوص البوادي مريدين ورجال حضرة، مثلما هو حال الشيخ أحمد بوعكاز بالأطراف الغربية لمدينة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قسنطينة، فحسب مؤلف منشور الهداية فإن هذا المدعي كان يتخذ من المتلصصة خلانا وأصحابا فكان لهم فيه "اعتقاد كبير وشأن عظيم، يأتون إليه بالهدايا إبلا وخيلا وشاة وبقرا وغيرها.... ومنهم من يأتيه بنحو الحثية (الشيء القليل)من التمر والقفة "(عبد الكريم الفكون، 1987، ص134). وقد استغلت السلطة العثمانية شيوخ الصوفية وكراماتهم لردع المتلصصة ومن لم تقدر على رد خطرهم بوسائلها. فتقرب أعوانها منهم بالهدية والمخالطة، وإبداء الطاعة وحضور الحلقة.

خاتمة

ساعدت السلطة العثمانية على انتشار الفكر الكرامي الذي وجد في ظروف الأزمات السابقة لنشوئها وامتدادها منبتا خصبا، فوجد فيه العثمانيون وسيلة أخرى لبسط هيمنتهم عن طريق التحالف مع الأولياء والدراويش مدعو البركة والكرامة، وقامت بتحييد مجالات واسعة ظلت لردح من الزمن ملتفة حول ضريح ولي خارق، يدير ضريحه مستصوف أوكلته السلطة لقاء إعانات ورواتب وهدايا المواسم. ويبدو أن الفكر الكرامي كان ينقلب في بعض الأحيان وبالا على السلطة، من جراء ازدياد طموح الشيوخ المعتقَد في كراماتهم واغترارهم بقدراتهم على تجاوز السلطة، كما حدث في أواخر الفترة العثمانية حين دب الضعف السياسي والاقتصادي في مؤسسات الإيالة، وتصاعدت حركة الدرقاويين في قسنطينة وعلى الحدود الغربية للإيالة.

ورغم اهتمام الكثير من الأطاريح والرسائل الجامعية، والمقالات التي نشرت في المجلات الجزائرية بالتصوف والفكر الكرامي، إلا أن الموضوع عندما يتصل بالسلطة وممارساتها، هو بحاجة ماسة إلى مزيد من الاهتمام العلمي الذي يتوسل بالمناهج الحديثة، ويفتش جميع المصادر على اختلاف أنواعها للوقوف على الظاهرة، وتحليل أنساقها السياسية والاجتماعية.

التعليقات:

1-سيدي بولعويدات هو سيدي حميدة بن سيدي الحطاب بن اليزيد دفين جبل تاقنسة على مشارف قصر البخاري، لا يزال ضريحه مزارا إلى اليوم.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

2-حسب فيرو فإن عزيب بايليك الشرق كان في ضواحي ميلة حيث تتواجد قبائل اولاد عبد النور وبني يدر (Feraud .Ch, 1870, p121)

قائمة المراجع:

أ-المصادر:

01-ابن عثمان حمدان خوجة، (2005)، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الجزائر،ANEP.

02-ابن مريم التلمساني، (1908)، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مراجعة محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية.

03-ابن مسائب محمد، (1989)، ديوان ابن مسايب، إعداد وتقديم: الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

04-ابن هطال التلمساني، (1969)، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الوهراني، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط1، القاهرة، عالم الكتب.

05-أبي راس الناصر المعسكري، (1990)، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

06-أبي راس الناصر المعسكري، (2005)، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج2، تقدي موتحقيق محمد غالم، وهران، منشورات CRASC.

07-الجزولي محمد بن سليمان، كعبة الطائفين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

08-الزياني محمد بن يوسف، (2013)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ط1،تحقيق المهدي بوعبدلي، الجزائر، عالم المعرفة.

09-العنتري صالح، مجاعات قسنطينة، (1974)، تحقيق رابح بونار، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.

10-الفكون عبد الكريم، (1987)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ط1، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

11-الوهراني مسلم بن عبد القادر، (1974)، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق رابح بونار، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

12-بلعطار أحمد بن المبارك، (2012)، تاريخ بلد قسنطينة، تحقيق وتقديم عبد الله حمادي، قسنطينة، نوميديا للطباعة والنشر.

13-شارل فيرو، (2010)، جيجلي، ط1، ترجمة عبد الحميد سرحان، الجزائر، دار الخلدونية.

ب- المراجع:

01-الحباشي محمد علي، (2012)، العروش من النشأة ....إلى التفكك؛ بحث تاريخي اجتماعي في أرياف الإيالة التونسية وسكانها من 1574 إلى 1975، ط2، تونس، الشركة التونسية لنشر وتنمية فنون النشر.

02-بري ممدوح غالب أحمد، (2019)، تاريخ التصوف في الدولة العثمانية: الطريقة البكتاشية نموذجا، دراسة حول علاقة الدين بالسياسة في الدولة العثمانية، برلين، منشورات المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية.

03-بودريعة ياسين، (2013)، المعتقدات في كرامات الأولياء، بمدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة العلوم الإنسانية، ع40، صص367-383.

04-بودشيش إبراهيم القادري، (2014)، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.

05-بوزيدة عبد الرحمان، (2005)، قاموس الأساطير الجزائرية، وهران، منشورات C.R.A.S.C.

06-جرجيرة مداني، (2012-2013) ، الرمزية الصوفية في الأزمات الاجتماعية الكرامات وتمثلاتها في المغرب الاوسط(ق10 هـ/ق14هـ) مذكرة غير منشورة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر.

07-دحومان الحسني، (2009)، الأشراف ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، ط1، الجزائر، دار الخلدونية.

08-سعيدوني نصر الدين، (2013)، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر(دار السلطان) أواخر العهد العثماني (1791-1830)، ط.خ، الجزائر، البصائر للنشر والتوزيع.

09-سيدهم سيدهم، (2009)، مكانة التصوف في الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، عدد1، ص ص19-36.

10-علواني صالح، (2013)، انتشار الولاية في بلاد القبائل الرحل وتشكل قبائل مرابطيةمابين القرنين السابع والتاسع الهجريين/القرن الثالث عشر والتاسع عشر ميلاديين، مجلة إنسانيات، جامعة وهران، ع60-61، صص111-124.

11-مرتاض عبد الحكيم، (2015-2016) الطرق الصوفية بالجزائر في العهد العثماني (1518-1830) تأثيراتها الثقافية، أطروحة غير منشورة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة وهران، الجزائر.

12-موساوي أحمد، (2007)، الخطاب الكرامي خطاب المجتمع، الأثر -مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح- ورقلة، الجزائر، ع6، ص ص40-44.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ج– المصادر باللغة الأجنبية:

01-Devoulx. A, (1871) assassinat du Pacha Mohammed Teclirli, R.A, V15.pp81-89.

02-Feraud .Ch,(1870), Notices sur les Ouleds AbdEnnour, L.ARNOLET, Constantine.

03-Roqueville. De,(1675), Relations des moeur et de gouvernement des turcs d'Alger, Paris.

04-Saulcy. Félicien de, (1838), Souvenir d'un voyage à Constantine à travers les montagne, Metz.

05-Watbled. E, (1871), Documents inédites sur l'assassinat du Pacha Teclirli (1556-1557), R.A, V15, pp338-394